الشاعر الجوّال

من العسير أن نحدد مايراد بكلمة شاعر جوال Juglar فى الآداب اللاتينية بصفة عامة، وفى الأدب الإسبانى على نحو خاص. كان معنى الكلمة خلال العصور الوسطى واسعاً عريضاً، يتلوّن تبعاً للزمن والمكان الذى يتحرك فيه الشاعر. وكلمة Juglar وهى مأخوذة من الكلمة اللاتينية Iocularis معناها المسلّى، وتطلق على الرجل الذى كان يسلّى الملك أو عامة الشعب، وكان هؤلاء الشعراء الجوّالون، وهم من أصل جرمانى، يذهبون من بلاط إلى بلاط، **ومن سيد إلى سيد، ينشدونهم الملاحم التى تدور حول مغامرات الأبطال.** شىء عرفه الأندلس أيضاً، عندما تعددت مراكز الثقافة والإمارة، فكان الشعراء يتنقلون بين العواصم والملوك، وكان عددهم كبيراً، وفيما بعد القرن الحادى عشر الميلادى كان يلتق فى بلاط الأمير الواحد، مسلم كان الأمير او مسيحيًا، شعراء ينشدون الشعر بالعربية الفصحى، أو بالرومانثية الخالصة، أو بعامية هى مزيج من اللغتين.

كان الأمراء والسادة يطلقون كلمة شاعر جوّال فى القرن الثالث عشر على طبقة معينه من الناس، وكان عامة الناس يقصدون بها طبقة أخرى، ويستطيع رجل الأخلاق أن يجد بينهم الشرير المستهتر، ومن ينتزع منك التقدير والاحترام، بينما يعتبرهم المشرع دائماً أناساً رديئين سيئى الأخلاق. كان معنى الكلمة يسع جميع أولئك الذين يربحون لقمة العيش من إضحاك الآخرين والترفيه عنهم ،يريحون أعصابهم بالموسيقا او الأدب أو الطرف أو الألعاب اليدوية أو الحركات البهلوانية.

من بين العلماء المحدثين الإسبان، كان **ميننديث إى بلايو** (١٨٥٦

١٩١٢)، أكثر الباحثين معرفة بالعصر الوسيط، ويعرِّف فن الشاعر الجوال بأنه : «لون من التسول الأكثر مرحا ودخْلًا، يلجأ إليه التعساء المحرومون، والصعاليك الظرفاء، والطلاب الفقراء، ورجال الدين الصيّاع، والسكارى المعربدون، وكل الذين جاءوا إلى الحياة مجردين من الثروة والجاه، ويملكون نهما فنيا، وينفقون حياتهم أحرارا، يكيفونها وفق الضرورات القاسية التى يواجهونها».

غير أن مينينديث بيدال، وجاء بعد بلايو (١٨٦٩-١٩٦٩)، وشاركه وربما زاد عليه، فى التمكن من معرفة مشاكل العصر الوسيط التاريخية والأدبية، يرى أن الشاعر الجوال لم يكن دائما متسولا، ولا حتى رجلا فقيرا فى كثير من الحالات. بل ونجده أحيانا فى وضع اجتماعى مرموق. وقد تتبع طائفة الشعراء الجوالين، فوجد أنها كانت تضم الصعلوك الظريف، ومن يغنى فى الشارع، أو يمثل على المسارح، أو ينشد الشعر فى الكنائس، أو قلاع الملوك أو قصور السادة، والراقصين، ومؤلفى الرقصات، وكل ألوان الألعاب والتسليات المرحة، من تقليد أصوات وأفعال الحيوان، أو لوازم أصحاب العاهات، والثرثار الذكى، وصاحب النكتة اللطيفة، والمهرج الخفيف، والعازفين على الآلات الموسيقية، ومن يقرع الطبل أو يضرب على الدف. إنهم باختصار كل أولئك الذين ينثرون المرح والبهجة بين الناس. وكل ذلك يجب أن يتم فى حفل عام، والأديب الذى يكتب عملا أدبيا ليضحك أو يسلى القراء، لا يعد شاعرا جوالا إذا لم ينشد ذلك علانية، أمام جمع من السامعين.

وجرت العادة أن يلبس الشاعر الجوال ملابس لامعة، ذات ألوان زاهية متعددة تشد الانتباه. وبالطبع فإن ملابس الذين كانوا يترددون على قصور السادة من ملوك وأمراء ونبلاء كانت أرق تفصيلا، وأفخم نسيجا. كن شعراء الملك شانجه الرابع (١٢٨٤-١٢٩٥م) يرتدون نوعا واحداً من

الملابس، أحمر أو أبيض أو نبيذيا صنع فى بلنسية، وكان الموسيقيون فى بلاط **خوان الأول** ملك أرجون (١٣٨٧-١٣٩٥م) يرتدون ملابس بيضاء، مزينة بالفضة، أما الشعراء الخمسة الذين فى بلاط **كارلوس** ملك نبرة (١٣٨٧-١٤٢٥م) فكانوا يرتدون ملابس خضراء، ويحملون شارة فضية مزخرفة، أغلى ثمنا للرئيس منهم، وتميّزه عن الآخرين.

وخلال العصر الوسيط كانت شعوب أوربا تعيش تحت نظام مزدوج اللغة، فالقليل من رجال الدين وحدهم يتخذون اللاتينية لغة الكتابة والأدب بينما الكثيرة الغالبة من الجماهير تجهلها، فجاء هؤلاء الشعراء الجوالون ورفعوا العامة إلى مستوى اللغة التى يقال فيها الشعر، حتى أن كلمة Juglar أصبحت تعنى : «شاعر فى اللغة الرومانية»، والرومانثية Romance هو الاسم الذى كان يطلق على اللغة العامية التى تفرعت عن اللاتينية فى إسبانيا. ومن ثم يمكن القول، دون مبالغة، أن الشاعر الجوال هو الأب الحقيق لكل الآداب الاوربية الحديثة.

● ● ●

فى القرن الحادى عشر الميلادى دعت الحاجة إلى اسم جديد، يطلق على شاعر متميز، أشد أصالة وأكثر ثقافة، وظهر أول ما ظهر فى مقاطعة بروفانس، جنوبى فرنسا، يقول الشعر لأول مرة فى اللغة العامية، ويعبر فى شعره عن ذات نفسه، وينشد ما يؤلف أمام الطبقة العليا فى المجتمع، وأطلق عليه اسم **الشاعر المنشد** **Troubadour**، تمييزا له عن الشاعر الجوال Juglar، والتقدير الذى حظيت به القصيدة الجديدة المثقفة، إن صح التعبير، بلغ حدا كبيرا من الذيوع السريع، حتى أن كلمة «**تروبادور**» هذه دخلت كل اللغات الأوربية، لأنها أكثر تحديدا لوظيفة الشاعر من الكلمة الأولى،

وعرفت فى الأندلس المسيحى، فى قشتالة بالذات، فى أول وثائق رسمية، بعد ثمانين عاما من توثيق كلمة خوجلار Juglar ، لقد ظهرت هذه لأول مرة فى وثيقة رسمية تعود إلى عام ١١١٦، وتتصل بمدينة ساهاجون، وأخرى تعود إلى عام ١١٣٦، وتتصل بمدينة ليون، بينما نجد كلمة «تروبادور» تظهر لأول مرة فى عام ١١٩٧م، على شهادة بإحدى الأديرة، شمالى الأندلس، تحمل توقيع : «غومث التروبادور».

كان ثمة اختلاف بين الكلمتين منذ البدء فالشاعر الجوال Juglar ينتزع لقمة العيش بالغناء فى قصائد ليست له، أو له ولكنها غير ذات مستوى، ومن ثم كان على الدوام أقل نبلا من الشاعر المنشد Troubadour ،ومن جانب آخر، ولو أن الشاعر المنشد كان يغنى فى جمع أحيانا، لم يكن يصنع ذلك حرفة، حتى ولو كان فقيراً، وكان دائماً شاعر الطبقة الأكثر ثقافة، وكثيرون من الفرسان، من الطبقة الاجتماعية العالية، كانوا يحاولون أن يصنعوا مثله، يقرضون الشعر ليبرعوا فيه، ويدربون على الموسيقا ليتمكنوا منها، حتى يكونوا فرساناً كاملين، ولم يبعد **ثرفانتس** (١٥٧٤-١٦١٦م) مؤلف رواية دون كيخوته الشهيرة عن الحقيقة حين يقرر : «كل الفرسان المغامرين فى القرن الماضى كانوا من الشعراء المنشدين».

تاريخيا - إذن - **الشاعر المنشد**، جاء فى مرحلة تالية للشاعر الجوال، أو هو تطوُّر له، وقد يكون فارساً كما ألمحنا، وقد يكون مجرَّد شخص يقرض الشعر، وأول شاعر منشد نعرفه أكيداً، ووصلتنا عنه أخبار لا بأس بها، **جيوم التاسع**، دون أقيطانية (١٠٧١-١١٢٧م)، فى جنوب فرنسا، وينحدر من سلالة رفيعة، وكان يحكم دولة شاسعة يعمها الثراء والرخاء، واسع الثقافة، يعرف عدداً من اللغات من بينها اللغة العربية، وتميز بشخصية ظريفة لبقة، أشد ما تكون شبها بشخصية الشاعر الجوال. ورغم أن الشاعر المنشد

تال فى التاريخ للشاعر الجوال ومقلد له، كان الأول - بصفة عامة - أرق اجتماعيا من الثانى، وأوسع منه ثقافة وأعلى تربية، ولو أن الحدود بين الاثنين لم تكن أبداً دقيقة وفاصلة، فقد نجد شاعراً جوالا مثل **ماركبرو Maracabru**، من مقاطعة جسكون فى جنوب فرنسا، والمتوفى عام ١١٥٧م، قد ارتفع بمواهبه إلى مستوى كبار الشعراء المنشدين، بينما نجد شعراء منشدين، وينحدرون من نبلاء، لم يستطيعوا أن يستمروا فرسانا، فتحولوا إلى شعراء جوالين، لكى يربحوا لقمة العيش.

وكان هناك من يأسى لأن كلمة **شاعر جوال** تطلق على من يرقصون القرود أو يضحكون الجماهير، أو يعزفون دون معرفة على إحدى الآلات الموسيقية، أو يغنون فى الشوارع والميادين لغمار الناس، ثم يهرولون إلى الحانات ينفقون ما تلقوه تفضلا، دون أن يرقوا إلى مرتبة العمل فى بلاط ملك أو قصر نبيل، إن ما يقوم به هؤلاء ليس من فن الشاعر الجوال فى شىء، لأن الشاعر الجوال إنسان مثقف ذكى مقتدر، يستطيع أن يدفع بالصالحين من الناس فى طريق البهجة والمتعة والشرف. وبعد هؤلاء جاء **الشاعر المنشد Trouba-dour** ومهمته أن يمدح الشجعان، ويمدهم بالتأييد المعنوى، ويشجعهم على الأعمال النبيلة. ولقد شكا Giraldo Riquier، وهو أديب قشتالى كبير إلى ملك قشتالة عام ١٢٧٥م هبوط هذا الفن، وانتساب كثرة من المشعوذين إليه، وطلب منه أن يحدد أسماء الشعراء، وأن يعيِّن على نحو خاص من هو الذى يطلق عليه اسم شاعر جوال Juglar، ويحق له أن ينتحل هذا اللقب.

ولم يسلِّم الملك للأديب القشتالى بوجهة نظره، لأن شمول المعنى فى كلمة شاعر جوال لا يتعدى مقاطعة بروفانس فى جنوب فرنسا، فهناك يشمل كل الطوائف التى أشرنا إليها من قبل، أما فى الاندلس فلكل طائفة اسمها الخاص

obeikandi.com

بها. وتطلق الكلمة على من يغنون بمصاحبة الآلات، أما الذين يقلدونهم، أو ينشدون كلاما بلا معنى، أو له معنى سخيف، أو يعرضون فناً رديئاً فى الشوارع والميادين، أو يبتزون الناس أموالهم بلا شرف، فكل طائفة منهم لها اسمها الخاص بها، ولا يمكن بأى حال أن يندرج فى معناه، من يُرقِّصون القرود أو الماعز أو الكلاب، أو يضحكون الناس بتقليد أصوات الطير والحيوان، أو الحمق والمغفلين والبلهاء، ومن يغنون للعامة بأى أجر مهما كان ضئيلا. إنما **الشاعر الجوال** - فيما يرى الملك - من يعزف بفن، ويتغنى بأدب، وينشد أشعاراً نظمها آخرون، يطرب بها الأغنياء من القوم، ومثل هؤلاء يجب أن يلقوا الترحيب فى أى بلاط، لأنهم يحملون إلى قصره الراحة والمتعة والسرور. أما **الشاعر المنشد Troubadour**، فهو الذى يبدع الشعر، ويجيد الرقص، ويلحن الأغنية، ويصوغ المدائح، وينظم الموشحات، وأخيراً يطلق اسم « المعلم » على من اتصف بين هؤلاء بالشعر الرقيق، وعرف بالثقافة الواسعة، والتزم جادة الشرف، وأعلن الحرب على كل ما هو مشبوه ومنحرف.

● ● ●

كان **الشاعر الجوال** أدنى اجتماعياً من **الشاعر المنشد**، لأنه تابع له فى عمله فهو يغنى أشعاره، أو يصاحبه بآلته الموسيقية فى الغناء، وكبار الشعراء المنشدين كانوا يتجولون عبر شبه الجزيرة، وفى صحبة كل واحد، بحسب أهميته، عدد من الشعراء الجوالين، وهو بعامة غير قادر على قرض الشعر. يعيش فى أغانيه على قصائد يطلبها من الشاعر المنشد، وكان هذا فى مقاطعة بروفانس هو الذى يختار بنفسه الشاعر الجوال، ويشير إليه فى قصيدته، ليقوم بمهمة نشرها - أو روايتها - أو يغنيها لأصدقائه الذين يود أن يحييهم أو يطلب عونهم، أو لأعدائه الذين يسبهم ويتحداهم، وفى أحايين كثيرة كان الشاعر

المنشد يسخر من الشاعر الجوال التابع له، وفى الوقت نفسه لايجد هذا الأخير حرجاً فى أن يغنى شعراً يدور حول سبه وهجائه، وأن يهزأ من ناظمه، ويغالى فى تحقيره والتشنيع عليها. ورغم هذا كان عليهما أن يتعاونا، لأن كلا منهما محتاج إلى الآخر، الشاعر المنشد يقول الشعر ويقرضه، والشاعر الجوال ينشره ويغنيه، وبقى هذا الفرق واضحاً حتى بعد أن فقد الشاعر المنشد صفة الفروسية والاستقلال، وأصبح الشعر مهنة له يتعيش منها، وتحول إلى مدّاح لحوح، لأنه بقى دائماً شاعر البلاط والقصر والقلعة، يقف بفنه عند تسلية الملك والأمير والنبيل، وبقى الشاعر الجوال، حتى ولو جرؤ على تأليف الشعر الذى يتغنى به، شاعر الجماهير دائماً.

لأحد كالشاعر المنشد يعرف مباذل الشاعر الجوال ونقائصه، ومن شعر الأول نعرف ما كان عليه الثانى من شغب وسكر وعربدة ونصوصية واحتقار كل ما هو محترم، ومع ذلك كان يتمتع بالفكاهة الظريفة، والصوت الرهيف، والذاكرة القوية، وقدرة فائقة على أن يترجم بنبره معانى القصيدة مجسمة، وأن يلتقط مايريده المؤلف من هدف بعيد وخفى ويقدمه للسامع قريبا واضحا. لكن مواهبه مهما بلغت تقهقرت أمام رذائله، فكان يزداد كل يوم انخفاضا، ولم يأت النصف الثانى من القرن الرابع عشر، حتى ترك الغناء، وعزف عن إنشاد الشعر، وقصر نفسه على الموسيقا، وارتبطت كلمة شاعر جوال Juglar بالحطة والضعة ارتباطا وثيقاً، فألغيت من معظم القصور، واستعاض عنها الملوك بكلمة Menestrel الفرنسية، ولها نفس مدلول الكلمة القشتالية قبل أن ينحدر معناها. وأصبحت كلمة شاعر جوال مرادفة لمعنى: «إنسان ثرثار لطيف، ساخر الحديث، صاحب نكتة، صايع غير مستقر، يعيش حياة قلقة على الدوام».

● ● ●

obeikandi.com

باتساع الهوة بين ما كان عليه **الشاعر المنشد** وما عليه **الشاعر الجوال**، ظهرت طبقة ثالثة تملأ ما بينهما من فراغ، أحط من الأول وأرفع من الثانى، وتكون بينهما حلقة اتصال، واختص بها الأندلس وحده، ويطلقون عليها بلهجة جيليقية، اسم Segreier أو Segral [١]، ولست أعرف كلمة واحدة فى العربية يمكن أن تؤدى هذا المعنى، ولكنى أعتقد أن إطلاق اسم « **الشاعر المنشد الجوال** » عليه، لأنه أخذ من صفات كل واحد شيئا، يمكن أن ينتهى بنا إلى المعنى المقصود. ينتمى هذا الشاعر - عادة - إلى جماعة تتحرك فى إطار طبقة الفرسان، يقومون لهم على الخيل إعداداً وإطعاماً وعلاجاً، وقد يكون فارساً من الطبقة الدنيا، أو نبيلا مفلساً، ورث اللقب دون أن يرث معه مقوماته، ولايملك من الوسائل ما يرفعه إلى مرتبة الفروسية، أو يفى بمطالب النبل، فيجد فى قرض الشعر وسيلة للعيش، يرحل من بلاط إلى بلاط، **ويصحب الجيوش، ينشدها قصائده أحياناً، ويغنى لها قصائد غيره** أحياناً أخرى، ويشترك معها فى القتال إذا دعت الضرورة، ويؤمن بكرامة مهنته. غير أنه تأثر فى أخلاقه الشخصية بأخلاق الشاعر الجوال، فهو سكير ثرثار، لحوح سؤول، دائماً مع سيدات لسن فوق مستوى الشبهات.

لقد كان يفترق عن الشاعر عن الجوال بأنه ينتمى إلى طبقة الأشراف، ويقرض الشعر بهدف أن يغنيه ،وليس عرضاً أو هواية، ويفترق عن الشاعر المنشد بأنه كان يتقاضى لأغانيه أجراً.

ومنذ القرن الثالث عشر نلتق **بالعميان** داخل نطاق الشعراء الجوالين، يكونون طبقة متميزة، ويشير لهم كثيراً **رئيس كهنة مدينة هيتا**، من أدباء القرن الرابع عشر الميلادى، فى كتابه : « **الحب المحمود** »، وينعتهم أحياناً

---

(١) يرى خوليان ريبيرا أن هذه الكلمة تطور لكلمة رحال العربية، وقد ترجمنا دراسته عنها، ونشرناها فى مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

بالعميان المتسولين، لأنهم يمضون بقيادة صعلوك، ينشدون ويغنون ويطلبون الصدقات، خبزاً أو مالا أو شراباً أو ملابس، وليس هذا مما يطلبه المتسولون عادة، إنما يرتفع بمن يطلبه إلى مرتبة الشاعر الجوال. وكان رئيس الكهنة شديد القسوة عليهم، فاعتبرهم أحط درجات الشعراء الجوالين، رغم أن بعضهم كان يمتلك مواهب نادرة، تؤهله ليلمع فى أى بلاط ملكى، وبعضهم لمع فعلا، وبقى الأعمى حتى نهاية القرن الرابع عشر، فى الأندلس وفى جنوب فرنسا أيضاً، مشهوراً بأنه خير من يقص حكايات البطولة القديمة ويغنيها.

وكان بين الشعراء الجوالين من ينتمون إلى طبقة رجال الدين، يتخذون من أبواب الكنائس مسرحاً، يضحكون الناس بحركات بهلوانية، أو يغنونهم أشعاراً دينية، إلى أن صدر قرار المجمع الديني المنعقد فى **طركونة** عام ١٣١٧م، بمنع رجال الدين من احتراف مهنة شاعر جوال، وكان من السهل دائماً على الشاعر الجوال أن يصبح رجل دين، والعكس صحيح أيضاً. ونجد فى وثائق عام ١١٦٠م أن رجل دين يدعى **كليمنت**، كان يقرض الشعر، ويجيد الغناء، ثم ترك الرهبنة ليصبح شاعراً جوالا، ومضى يعرض فنه بين القصور المختلفة، غير أنه عاد إلى حرفته الأولى، رجل دين من جديد، فقد وجد هذه تدر عليه الربح أكثر مما تعطيه المهنة الأخرى.

وإلى جانب الرجال نجد النساء أيضاً، وعلى نحو خاص فى القرن الثالث عشر، وحدهن أو مع الرجال، فى قصور الملوك، وقلاع السادة، وأفراح الجماهير، يعرضن فنونهن المختلفة، وكانت المرأة الجوالة مثلا للمرأة الضايعة، تربح حياتها بما يدفعه لها الجمهور. وكان بينهن، على نحو ما كان شائعاً فى العصور الوسطى وعلى أيامنا هذه، من يقدمن للجمهور الغناء والرقص وأجسامهن أيضاً. ويأتى ذكرهن فى أخبار القرن الثالث عشر على أنهن شاعرات جوالات، ويشير إليهن الشعراء على أنهن سيدات مرحات، دون أن يعرضوا لما

obeikandl.com

يقدمنه من فنون تفصيلا، ربما لأن فنهن كان ثانوياً فى حفلات القصور بالنسبة لما يعرضه الرجال، وأحياناً كان يطلق على المرأة الشاعرة الجوالة اسم Soldada أى التى يؤجرها تابعها، زوجاً أو رفيقاً أو صديقاً، ليربح من ورائها ثمناً.

● ● ●

كان الشاعر الجوال إذن يزاول أشياء كثيرة، يعزف الموسيقا، ويغنى الملاحم، وينشد قصائد الغزل، وينظم الشعر، ولكنه فى الوقت نفسه مهرج مشعوذ يضحك الجماهير، وامرأته بهلوانة. غير أن هناك شعراء جوالين كانوا أكثر احتراماً من غيرهم، وجُدوا فى قشتالة حيث ازدهر أدب الملاحم وفى أمكنة أخرى كأرجون، ووقفوا حياتهم على رواية شعر البطولة ومغامرات الفرسان، ومعجزات القديسين، فكانوا موضع الرضا من رجال الدين والأخلاق، ومن ثم يمكن أن نميز بين فريقين من الشعراء الجوالين: من تخصصوا فى **الأشعار القصصية**، ومن أعجبوا **بالشعر الغنائى**. والذين يعزفون الموسيقا يعرفون من أدواتها: الناى والبوق والمزمار والقيثارة والقانون والرباب، ثم الدف والطبل، ويعتبر من يستخدمها أدنى طبقة من الآخرين. وكل قصيدة تستدعى موسيقا معينة، على آلة محددة، تصاحبها فى الغناء أو الإنشاد.

مهمة الشاعر الجوال أن يرفه عن كل الناس، من أعلى درجة فى المجتمع إلى أدنى طبقة فيه، ويسعد بمهاراته الملوك كما يسعد عامة الشعب، وترتبط نوعية الشاعر بالمستوى الاقتصادى لمن يغنيه، فلا يمكن التسوية بين شاعر ضمنت له لقمة العيش، وتوفرت له سبل الإجادة، ويسرت له آلات الموسيقا، وبين آخر ينتزع رزقه من جيوب جماهير مطحونة، بصعوبة بالغة.

كان من الشعراء من يتردد على القصور، ومن يرحل من بلاط إلى آخر، ومنهم الموظف المقيم، الملتحق بحاشية الملك أو السيد أو الأمير، يتقاضى راتباً

ثابتاً، ومهمته أن يسليهم بأرق مهاراته وأدناها، وما تدرج منها بين السمو والانحطاط. وكان غرام الملك وكبار رجال الدولة بهذا الفن مثار الشكوى الدائمة، لأنه أخطر ما يغرم به إنسان مسئول، فقد جعلهم ينسون واجباتهم العامة تماما. ويتمتع الشاعر، موظفاً أو عابراً، بتقدير كبير من الملك ومن حوله، ويسفر لهم أحياناً، فقد كان الشاعر الجوال من أشد وسائل النشر فاعلية* وتأثيرا فى الرأى العام. وزاحم كبار رجال الدين، ورؤساء الكنائس والمطارنة، الملوك والساسة فى هذا الاتجاه، فكان لهم شعراؤهم الجوالون أيضاً، وتعكس وثائق هذا العصر سخطاً مريراً من شعراء مثقفين، يقرضون الشعر باللاتينية، ولكن الكنيسة، واللاتينية لغتها وبين رجالها تعيش، أوصدت أبوابها فى وجوههم، بينما ترحب بالشعراء الجوالين وتسخو عليهم فى العطاء. ولم يتردد صغار رجال الدين فى تقليد كبرائهم، ثم أسرفوا فى اتخاذ هؤلاء الشعراء، فأصبح الأمر موضع النقد الشديد، واضطرت المجامع الدينية أن تحرم هذا العمل، وأن تشدد عليهم فى النكير. واتسعت دائرة توظيف الشاعر الجوال، فكان للبلديات شعراؤها، بل ولكبار الشعراء المنشدين أيضاً. وكثر عددهم، وزادت مرتباتهم، فكان الملوك يهدونهم القصور والضياع، ويعفونهم من الضرائب والالتزامات. وأحيانا يتلقون رواتبهم من البلديات قمحاً أو شعيراً أو ملابس أو نبيذاً، أو قدراً محدداً من المال ،ومع زيادة العدد، وكثرة الدخل، أصبحوا يكونون طبقة برجوازية متماسكة فى عدد من المدن، وأشهرها **ساهاجون** فى القرن الثالث عشر، **وأشبيلية** بعد ذلك بقرنين من الزمان.

وقد يقنع شاعر الجمهور بعد أن ينتهى من إنشاد الملحمة أو القصيدة بسؤال سامعيه شيئاً متواضعاً : أن يأمروا ساقى الخان يقدم له شيئاً من النبيذ، أو يهبونه كسوة، إذا لم يكن فى جيوبهم شىء من المال. وعند ما يبلغ الطرب والإعجاب بالفارس حده، كان يتنازل للشاعر عن جواده، أو بغله، وكان

امتطاء هذا الجواد خلال رحلاته أعظم شيء يطمح إليه، لأنه يزيد من قدره، ويرفع من قيمة الهدايا التى تقدم إليه.

وعند مازوّج **السيِّد** بنتيه، تبعاً للواقع وكما فى الملحمة، وزع الملابس على الشعراء، وكان تقديم الملابس أكثرها شيوعا ،والأسلحة أقلها تقديما، وقد تطرح الملابس تحت قدمى الشاعر زيادة فى الإعجاب به، وأحياناً تبلغ من الكثرة حداً يجعل حملها مصدر ضيق له. وعندما تزوج ألفونسو الرابع ملك أرجون، وأقيمت الحفلات فى سرقسطة عام ١٣٢٨م دفع ممثلو مدينة بلنسية للشاعر الجوال ملابس محلاة بالذهب، وتنازل جميع المائتين وستة وخمسين فارساً الذين شاركوا فى الاحتفالات عن ملابسهم الزاهية الفخيمة للشعراء الجوالين. وأمر الأمير **دون بدرو**، بعد حفل الغداء، بإعطاء ملابس غالية لكل شاعر جوال. وهو بذخ كان يثير دائماً رجال الأخلاق فى العصور الوسطى، لأنه يدفع هذه الطائفة إلى التغالى فى رذائلها، والإسراف فى المعاصى التى ترتكبها علانية. وفى الوقت نفسه كان الشعراء المنشدون من أشد الناس عداوة لأرباح الشاعر الجوال، ولم يكونوا مدفوعين بعامل أخلاق وإنما كانوا لهم حاسدين. وكان هناك من يعتذر لنفسه، أو أمام ناقديه، بأنه يقدم للشعراء الجوالين لأنهم فقراء، وليس لأنهم شعراء. والحق أن كل طبقات المجتمع كانت أسيرة هؤلاء الشعراء تدفع لهم راضية، مهما كان مستوى الدخل الذى تعيش فيه.

ومن الشائع فى التراجم البروفنسالية أن نجد سيداً يعطى كل أثاث بيته لشاعر جوال استلطفه، والشاعر البرتغالى الجوال **مرتين جالو** Martin Galo . وشهر بسلاطة لسانه، كان الناس يخافونه ويشترون صمته، وكان مع ذلك يجد على الدوام من يقدر شعره، فيعطيه جواداً أصيلا، أو ملابس غالية، أو عباءة مزينة. وكان الشعراء الجوالون عادة يبيعون الملابس التى يتلقونها، حتى ولو خرقة بالية لا تجد شاريا، وبلغت ثروات بعضهم حدا يكفى لإثارة الغيرة فى

صدر ملك من نبرة، أو فارس من قطلونية، فيبعث بمن يترصد الشاعر فى الطريق ليسلبه ثروته وما يمتلك. والحق أن الشعراء سريعاً ما كانوا يفقدون ثرواتهم وضياعهم، دون حاجة للوقوع فى قبضة قاطع طريق، فهناك الحانة حيث يشرب، وبيوت الخنا حيث يتردد، وحلقات اللعب حيث يقامر، وهى رذائل كانت منتشرة وكافية لتجعل من أى شاعر جوال مفلساً مهما ربح. ولو جرؤ اللصوص وهاجموه فسوف يتصدقون عليه رأفة بما هو فيه.

وبدهى أننا نتحدث عن الكثرة الغالبة. فهناك دائماً من يعرفون كيف ينمون أرباحهم، فيشترون البيوت، ويملكون الضياع، ويختمون حياتهم بإقامة مؤسسات خيرية، تكفيراً عما ارتكبوا من آثام وموبقات.

وكان الشاعر الجوال يزاول مهنته فى أى وقت، فى الساعات العادية أو اللحظات الممتازة، تبعا للبرنامج المعد، وخيال الشاعر، ومكانة المحتفل، ولون المناسبة. مثلا فى حفل من يدعى **ألبرتودى أرتيوس**، عام ١٢٢٧م، نجد بعض الموسيقيين يركبون على ثورين، مغطيين بكسوة قرمزية، يدقون الطبول عند كل طبق يقدم للملك، وكان الشاعر الجوال، إلى جانب الخورى، الشخصية الرئيسية فى أى حفل يقام للزواج، وكلما كان عدد الشعراء كبيراً كان ذلك شاهداً على عظمة الحفل، ورفعة شأن أصحابه. وقد يغنِّى الشاعر فى غير حفل، عند تناول الأمير طعامه، أو استرخائه على فراشه، إذ العادة أن يلبى الشاعر أيه دعوة توجه إليه من الملوك أو العامة، حتى لو لم يكن ثمة مناسبة عامة، ويغنى فى بدء المأدبة، وعند نهايتها، ومن المهين لأى أمير أن يغلق قصره فى وجه أى شاعر جوال يصل ساعة تناول الطعام. وفى مثل هذه المناسبة فإنه يغنِّى عادة ملاحم تاريخية، أو بطولات حربية أو عن التلاقى بالسلاح بين الفرسان. ولقد تكون مائدة السيد أو الإقطاعى، أو من يتشبث بمستواها الاجتماعى، بسيطة متواضعة، لكنها لابد أن تضم بعض الشعراء

الجوالين. مغنين أو عازفين، لأن افتقادهم عمل شائن يمس كرامة صاحب الطعام.

ونجد الشاعر الجوال فى الحفلات الدينية أيضاً، يلعب دوراً كبيراً، منشداً وعازفاً ومغنيا، ومنهم من ينتهى به الأمر إلى أن يصبح شاعراً جوالا دينياً، إن صح التعبير، فيقتصر نشاطه على الكنائس، أو على الجماهير الفقيرة دون أن ينتظر منها شيئاً، وأناشيد مثل هذا الشاعر تكون دينية عادة، ويشاركه فيها القسس والرهبان، مرددين وعازفين ومنشدين. لكن ينبغى ألا نفهم من تدينهم هذا أنهم كانوا أتقياء دائماً، فقد شكا بعض المؤرخين ورجال الدين من أن حفلات بعض القديسين التى يحضرها هؤلاء الشعراء، لا يقضى الناس ليلها مصليّن خاشعين، وإنما فى الغناء وترديده، والموسيقا وسماعها، ومع هذا الجو تصبح المواعظ الدينية ثقيلة على قلوب الناس. وأيًا ما كان الأمر، لقد كانت الكنائس، متعللة بأية مناسبة دينية، تبحث عن هؤلاء الشعراء، وفى مرات غير قليلة تغدق عليهم العطاء.

وكانوا، مع مدربى الكلاب والصقور، يصحبون السادة وسيداتهم فى الرحلات، يغنون لهم عبر الطريق وعند التوقف، ويذهبون عنهم رتابة السفر، ويمضون مع الجيوش إلى الحرب، يدقون الطبول. وفى مقاطعة بروفانس، وعلى نحو خاص فى المرحلة الأولى، كانت مهمة الشاعر تختلط تماماً مع مهمة الجندى. وهم مع الجيش ينشدون القصائد الغنائية، ويعزفون الموسيقا المبهجة، ليبثوا روح العناد بين الجنود، وكان يقال فى الأمثال: «إن هذا الجيش عائد بهمهم بلا أغان، كما لو كان مهزوماً فى ساحة القتال». وأحياناً يؤتى بهم إلى جوار أسرة المرضى لمواساتهم، أو الجرحى للتخفيف عن آلامهم. وفى وسع الشاعر الجوال بفنه المقتدر، أن يجعل الأدب والموسيقا يبلغان قمة المتعة، بهما

ينزع الحزن من القلوب الكليمة، ويبعث الأمل فى العزائم المنهارة، ويمد الأرواح القانطة بالهدوء والاطمئنان. غير أننا يجب ألا ننسى أبداً أن هؤلاء الشعراء يحملون حياة شخصية متناقضة، فهم أنصاف ملائكة وأنصاف شياطين.

● ● ●

تقدم لنا الوثائق، كما أرتأينا عبر الصفحات الماضية، الشاعر الجوال فى حالة غير كريمة، عربيداً سكيراً، مقامراً، على استعداد لأن يتقبل كل الإهانات، فهل كان فنه فى مستوى أرفع من تقاليده؟ فيما يلى سنحاول الإجابه على هذا السؤال.

الرحلة إحدى الخصائص الجوهرية للشاعر الجوال، وتعنينا فى دراسة التاريخ الأدبى على نحو خاص. وعلى نحو ما كان الشاعر العربى يفعل، يجىء من المشرق إلى الأندلس طلباً للشهرة، أو الثروة، أو المتعة، كان الشاعر الجوال فى الأندلس يرحل بحثاً عن جمهور جديد، وهو فى رحلته هذه ينشر المطوى من الآداب، ويشيع الجميل من الأنغام، بين المقاطعات والإمارات والممالك المختلفة، المتناثرة على امتداد شبه الجزيرة الإيبرية. لقد كان هناك أربعة من الرجال المثقفين فى العصر الوسيط يتعاونون على جعل الأدب عالميًا: التاجر، ورجل الدين، وطالب العلم، والشاعر الجوال.

كان الشاعر الفقير يرحل على قدميه، وفى لحظات طارئة غير مستقرة، كان يملك دابة، وكل متاعه الذى يحمله معه هو العود، أكثر الآلات الموسيقية استخداماً، ومخطوط يضم القصائد التى يُغنيها، وعادة يكون صغير الحجم، متآكل الجوانب، متواضع الكتابة والزخرفة والتجليد. وهو يرحل على امتداد الأندلس كله، وكان العميان أكثر رحلة من غيرهم، وربما طاف أحدهم شبه الجزيرة كله، بقصيدة واحدة يتعيّش منها. أما الأغنياء فكانوا يملكون

ما يركبونه، حصاناً أو بغلا أو حماراً، وكلهم، الفقراء والأغنياء، يبحثون عن جمهور يستمع، فى الأسواق والشوارع والميادين العامة، وآونة فى قلاع السادة أو قصور الأغنياء.

وعُرِفَ الشعراء الجوالون بالعيافة، يتفاءلون ويتشاءمون ، فيزجرون الطير، ويستقرئون النجوم، ويستهدون مطالع الفلك، واستقبال الشاعر بالترحيب شئ تفرضه العادة، بين الشعب أو عند السادة، فلا يجهد نفسه، لحظة وصوله إلى أى مكان، فى البحث عن مأوى ينزل فيه، فالناس جميعاً يعرفون أنه يحمل معه من البهجة والمتعة ما يقطع رتابة الحياة فى أى بيت يمضى الليل فيه. والذين يقصرون رحلاتهم على الملوك يظهرون أمامها عادة، يحملون رسالة توصية من فارس، أو من شاعر منشد، أو من نبيل صديق، وحتى الشعراء الجوالون الذين يؤدون مهمتهم موظفين ثابتين، كانوا يرحلون إلى أراض أخرى، استجابة لدواعى مهنتهم، وبحثاً عن المزيد من الشهرة والمعرفة والتجربة.

هذه الرحلات المتواصلة أعطت فن الشعراء الجوالين طابعاً عالميا سمحاً. يأخذ ويعطى، يُؤَثِّر ويَتأثَّر، وكانوا، دون ما ريب، أداة فعالة لتبادل الآداب بين المناطق المتعددة، ذات اللهجات المختلفة، فى الأندلس، وبين بقية العالم المتحضر إذ ذاك. فهم يأتون من فرنسا وإنجلترا وإيطاليا، أو يذهبون إليها، والقادمون من المشرق، وبخاصة إلى الجانب الإسلامى من الأندلس، لا ينقطع سيلهم، من العراق، وسوريا ومصر، وكان الأندلس بقسميه المسيحى والإسلامى، وصقلية الإسلامية، نقطة الالتقاء بين الشعراء الجوالين، من العرب أو المسيحيين.

وكانت الرحلة بعامة، ورحلة هؤلاء الشعراء بخاصة، عاملا هاماً فى إشاعة الموسيقا والأدب بين المقاطعات المختلفة، والبلاد المتعددة، فعوضت العالم إذ

ذاك عن المطبعة، وكانت رحلة الشاعر الجوال أكثر تأثيراً من أى شخص آخر لأن فنه يسمع ويفهم دون حاجة إلى معرفة جيدة باللغة التى يُغنَّى فيها، وإنما يكفى الإلمام بها، أو حتى دون معرفتها، ولم يقف دور هؤلاء الشعراء عند ربط المقاطعات ذات اللهجات المختلفة، والتمكين للغة أدبية واحدة تفرض نفسها على الجميع، وإنما تجاوزوا هذا الهدف، وهو بذاته جليل وخطير، إلى تقريب الأذواق، وإشاعة الشعر. إنهم وهم يرحلون من قصر إلى قصر ، ومن سوق إلى سوق، يصنعون باللغة والشعر والفن ما تصنعه بها الإذاعة الآن.

الدور الأكبر أهمية للشعراء الجوالين فيما يتصل بتاريخ الثقافة هو ابتداع الشعر، وإشاعة الموسيقا. ويعنى بهم دارس الأدب وتاريخه بوصفهم رواة ومؤلفين. ويهمنا منهم بنوع خاص، فى هذه الدراسة، أولئك الذين اتجهوا إلى أدب الملاحم، بألوانه المختلفة، بطولة ومغامرات وقصصاً. وثمة آخرون اهتموا على نحو أشد بالقصيدة الغنائية، هجاء وغزلا، وألوانا أخرى كلها ذاتية وغير قصصية. وإذا كان شعراء القصيدة الغنائية معروفين، وحفظ لنا التاريخ معلومات وافرة عنهم، فنحن نجهل أصحاب الملاحم تماماً.

كان الشاعر الجوال ينشد الشعر الغنائى ويرويه، فإذا طمح أن يكون شاعراً منشداً فحينئذ يقرض الشعر أيضاً، وهؤلاء الشعراء، جوالين أو منشدين، كانوا يؤدون نفس الدور الذى اضطلع به الشاعر الجاهلى من قبل، إثارة ومدحا وتمجيداً. وقد جاء الشاعر الجوال **البروفنسالى مركبرو Mara-cabru** إلى إسبانيا عام ١١٣٥م، ومدح **ألفونسو السابع**، واستمنحه جوائزه، ولعله ألّف وهو فى قشتلة قشتالة قصيدته Le chont de La voir يدعو فيها إلى الحروب الصليبية، ولما عاد إلى جنوب فرنسا أخذ يستثيرهم للذهاب إلى إسبانيا لقتال المرابطين دفاعاً عن المسيح. وبعضهم كان يشارك فى القتال مع سيده فعلا، فالشاعر القطلانى المنشد **هوجو دى متبلانا Hugo de**

Mataplana قاتل مع **بدور الثانى** ملك أرجون ضد الموحدين فى معركة العقاب. والقصائد التى أشاعها هؤلاء الشعراء، عبر شبه الجزيرة الإيبرية، أول طراز من الشعر الغنائى، وقد ازدهر فى العالم اللاتينى بأجمعه، ومس جوانب متعددة من مشاكل الإنسان، من حب ومدح، ووصف وهجاء، وأشعار رعوية، غير أن معظم قصائد هؤلاء الشعراء، من البدء إلى أن استقرت اللغة فى مطلع القرن السادس عشر، غير مفهومة تماماً، أو يعسر فهم المراد منها إلى حد بعيد. ومن المفيد أن نشير هنا إلى أن ديوان **ابن قزمان** الأندلسى المتوفى عام ١١٦٠، وكتب فى عامية أهل الأندلس، وهى خليط من العامية العربية والرومانثية الأندلسية، ووصلنا كاملا، مازلنا عاجزين عن فك طلاسمه، ولم نفهم من قصائده إلا القليل.

● ● ●

أول ذِكْر لشاعر جوال ينشد الشعر القصصى نجده فى «كتاب التاريخ» لمطران طليطلة **لذريق**، وانتهى من تاليفه عام ١٢٤٣م، وفى ضوء ما أورده لنا من معلومات يرى علماء النقد أن الجانب المسيحى من الأندلس لم يعرف شعر الملاحم قبل القرن الثالث عشر، والحق أن هذا اللون من الشعراء والشعر كان موجوداً قبل تاليف هذا الكتاب بزمن طويل، فى مقاطعة بروفانس جنوبى فرنسا، وفى جليقية شمال غربى الأندلس، غير أنه لم يُحفظ لنا من هؤلاء الشعراء الملحمين ولا اسم واحد، ولم تصلنا منه ولا ملحمة واحدة، باستثناء ملحمة السيد.

لكن الظلام الذى يلفّ هؤلاء الشعراء الملحمين لا يعنى أبداً، وعلى أى نحو، أنهم كانوا وأعمالهم أقل احتراماً، أو يسترعون انتباها أقل . على العكس، كان لهم فى قصور الملوك والفرسان مكان ملحوظ، وإذا كان الإنتاج

الشعرى الغنائى له من الأهمية ما جعله يجمع فى ديوان، فإن العمل الملحمى كان أكثر علوا وتقديرا فجمع فى «مدونات». وشخصية كل من الشاعرين توضح لنا الفرق بينهما، وتفسر لنا كثرة الأخبار فى جانب وانعدامها فى الجانب الآخر. فالأخبار الهائلة عن الشعراء الجوالين الغنائيين مردّها إلى أن الشاعر الجوال عندما يُغنى، أو ينشد شعراً غنائيًا، فإنما يغنى لنفسه عن نفسه، رغم كثافة الجمهور الذى حوله، ويصور انطباعاته إزاء الحياة التى تحيط به، ومن ثم فإن أشد القصائد قصرا ترد فى الدواوين أو كتب المختارات منسوبة إلى صاحبها دائماً، وفى أحايين كثيرة مصحوبة بترجمة مفسرة لها، لتوضيح الإشارات الواردة فيها.

وعلى النقيض من ذلك تأتى القصائد الكبرى، وتضم آلاف الأبيات، فى المدونات التاريخية دون أن يعنى ولو بإشارة عابرة إلى الشاعر، لأن المؤلف كان يعتقد أن ذكره، إذا كان اسمه معروفاً، تشكيك فى صدق الرواية التى يوردها، إلى جانب أن المؤلف كان يجهل شعراء هذا اللون من الشعر عادة. كان شعراء ومنشدو الشعر الغنائى لا يملون الحديث عن أنفسهم واتخاذها مثلا إذا دعت الضرورة، بينما شعراء الملاحم ورواتها ومن يتغنون بها يؤثرون أن يقدموا القصة محايدين وموضوعيين، دون أن يصلوا بينها وبين الحياة اليومية الجارية. وهم يؤثرون ألا يذكروا عن أنفسهم شيئاً. والحق أن الملاحم الفرنسية تذكر اسم الشاعر المؤلف، أما الملاحم الأندلسية فلم تخرج عن قاعدة تجاهله ولا مرة واحدة. ويمكن أن نفسر تجاهل مؤلف الشعر الملحمى بأن شعره ليس من إبداعه، وإنما هو، فى كثير من الحالات، صقل لعمل آخر أكثر قدماً. وقد تكون أيضاً عملا جماعياً، وليست من صنع مؤلف واحد، فشارك فى صوغها كثيرون على امتداد عصور متعاقبة.

أدّى الاختلاف بين الفنيين وبين الشاعرين إلى اهتمام مختلف بهما، وإلى

دراسة منفصلة لكل واحد منهما، ولو أنهما متكاملان فى الحقيقة، فالذين اهتموا بالشعر الغنائى رسموا لنا صورة جذابة للشاعر الجوال، بعاداته ومشاعره ورحلاته وهداياه فى بلاط الملوك، وتسوّله بين العامة، ونشاطه المستمر والمريب على الحدود مع الدولة الإسلامية، وأن شعره يتدفق من داخله، يعكس أعماقه، فيأتى فناً ذاتيًا خالصاً. بينما الشعر الملحمى يبق بكل شهرته، داخل نطاق الرواية والشعبية، وإذا كان مؤلف القصيدة الغنائية لا يحب أن يسمى شاعراً جوالا Juglar ويفضل أن ينادى شاعراً منشداً Troubadour، فإن شاعر القصيدة الملحمية لا يمكن أن ينسب إلا إليها، فهو شاعر جوال ذو لون خاص، داخل معنى الكلمة الفضفاض. وكانت الكنيسة الرسمية فى الجانب المسيحى غير راضية عن الشعراء الجوالين الغنائيين، وتعطى تأييدها كله للشعر الملحمى، بوصفه رسالة تهذيب، لتعليم التاريخ، وتربية الوجدان غير الرخىّ، وهو رأى لا يبعد كثيراً عن رأى نظرائهم من رجال الدين فى الجانب الإسلامى.

وإذا كنا لا نعرف رواية واحدة لملحمة شخصية، إلا أن المدونات التاريخية احتفظت لنا بمقتطفات من ملاحم أكثر قدماً من أية قصيدة غنائية محفوظة، وتسمح لنا، ولو تقريباً، بتصور ألوان الشعر القصصى الذى كان يتغنى به الشعراء الجوالون. سنجد أن هؤلاء الشعراء يقصون علينا ألوانا من الصراع الداخلى بين العائلات القشتالية الإقطاعية، قصص فيه ثأر وتسامح، وعفو وانتقام، وحب وخيانة، وشرف وخسة، ووفاء وغدر، وكل فضائل الحياة الإنسانية ورذائلها، ولم تأخذ هذه الملاحم مادتها من الصراع بين المسلمين والمسيحيين وكلهم أندلسيون، إلا عندما غزا المرابطون الأندلس، وهم أفريقيون، ثم باستيلاء السِّيد على بلنسية، وكان السيد يمثل عاصفة هزت كل بنيان الأندلس المستقر، فى مجالاته المختلفة، الاجتماعية والدينية والطبقية. ويتميز

الشعراء الملحميون الإسبان دائماً بأنهم يلتقطون مادة ملاحمهم من الأحداث المعاصرة التى تحيط بهم، بينما الشاعر الملحمى الفرنسى، والبروفنالى على نحو أخص، يقص دائماً أحداثاً بعيدة، ترجع عادة إلى عصر شارل.

أما الجوّال الأعمى، ويتعيش من إنشاد المغامرات القديمة أو غنائها، فقد أصبح موضع الاحتقار من شعراء البلاط، ومن رجال الدين على السواء، خلال القرن الخامس عشر وما تلاه، ثم لف الظلام حياته وحمله التدهور حتى النهاية، فلم يستطع أن يستردَّ، أو يلعب دوره فى الحياة الأدبية. ولقد احتضرت الآن كل هذه الأشكال القديمة، ولكن، على نحو ما فى العالم العربى، لاتزال لها ظلال شاحبة فى قرى كورة « أشتورياش » المنعزلة، وكورة « أبلة » الناضحة بكل تقليد أندلسى أصيل، فيها مازال الموسيقى؛ وهو أعمى عادة، يُغنِّى الناس على قيثارته قصصاً يتحدث عن معجزات القديسين، ومغامرات اللصوص، وحيل الشطار، ومفارقات الحياة الغامضة.

منذ البدء كان الشاعر الجوال يسلى الجمهور من كل الطبقات بالغناء والموسيقا، وليس ثمة شك أنه ورث وتمثَّل جانباً كبيراً من التراث الذى وجده، حكايات وأساطير، وأفاد كثيراً مما جاء به المسلمون، ومن الرحلة إلى إيطاليا وجنوب فرنسا، وكان عليه دائماً أن يجدد هذا التراث، لكى يلاحق التطور السريع فى الأذواق، والحركة الدائبة المتغيرة للتقاليد والحياة اليومية، ومراعاة هذا الجانب أعظم ما برع فيه الشاعر الجوال. لقد كان يعيش من عطف الجماهير وفضْل خيرها، جماهير متجددة تسمع وتعجب وتدفع وتتفوق، والشاعر الخلاق المجدد هو الذى ينتزع منها الإعجاب ويدعها تمضى وفى أعماقها شىء من حبه وتقديره، والعودة إليه، ومطالبته بالمزيد من البقاء.

obeikandl.com

بدأ الشعراء الجوالون يغنون لحظة انهيار المسرح اللاتيني، وعندما بدأت اللاتينية تتراجع في ألسنة الجماهير، فكانوا أول من واجه محنة الأديب حين يتحدث إلى جمهوره بلغة لا يفهمها، وأول من أحس بالحاجة الملحة إلى الإنشاد والغناء باللغة المشتركة للسامعين، وهكذا بدأ، شيئاً فشيئاً، يقترب من العامة، ولابد أن وقتا طويلا مضى قبل أن يتمكن هؤلاء الشعراء من أن يجعلوا اللغة اللاتينية غير المفهومة، قريبة إلى أذهان السامعين، يمزجونها شيئاً فشيئاً بكلمات وتعابير من اللغة الشعبية، عائلية أو حياتية أو أدبية، حتى انتصرت هذه أخيراً، وقضت على اللغة اللاتينية نهائياً. وبذلك حقق الشاعر الجوال انتصاراً حاسماً في المجال الأدبي. لقد شق بشعره الرومانثي طريقه إلى قصر السيد، وفناء الكنيسة، وعرصة السوق، ورحبة الميدان، وامتداد الشارع، وحطم الأسوار الحاجزة بينه وبين وجدان الجماهير، وهي القطاع الأكثر عدداً واتساعاً في العصر الوسيط، وجعل لغتها مركباً لفنون من القول عالمة وراقية، وقادرة على أن تخلف اللغة اللاتينية، في الوقت الذي كان فيه الكاتبون بهذه اللغة، محاصرين وضائعين، سجناء لغة ميتة، بلا جمهور ولا ثقل ولا تأثير.

لقد وُلدت الآداب الحديثة على يد الشعراء الجوالين، جاءت إلى الحياة والجماهير غايتها، واستمرت لقرون عديدة أدباً عاميا يتجه نحو العامة، وابتدعها أناس ممتازون، رغم أنهم كانوا يعيشون في أوساط ذات ثقافة منحطة، بعيدة عن اللغة العالمة، ومع ذلك فلم يكن الشعراء الجوالون من الجهلة، ولا يمكن أن يكونوا، حتى ولو جهلوا اللغة اللاتينية، وبالتالي القراءة والكتابة، فقد كان على كل واحد منهم، في ضوء ظروفه وقدراته ومحيطه، أن يرتفع إلى مستوى أستاذه ومهنته. ورغم أن شعره كان موجها إلى جمهور أقل ثقافة، لم يكن يختلف، أو يختلف قليلا، عن قصائد الشعراء المنشدين، وهي أكثر أرستقراطية. نعم كان جمهوره بدائيًا لا يعرف اللاتينية، أميا يجهل القراءة،

متفاوت الثقافة، متعدد الذوق، وهى عقبات لا تقلل من قيمة شعره أبداً، لأن المسرح المعاصر، وهو فى قته يتجه إلى جمهور يختلف ذوقاً وثقافة وعمراً، على نحو أوضح مما كان عليه جمهور العصر الوسيط.

كانت القصائد التى يتغنى بها الشاعر الجوال تتعرض للتهذيب والتنقيح، سواء كانت من تأليفه، أو اشتراها، أو مسروقة، أو منسوخة، لان الجمهور توّاق دائماً لما هو جميل ولطيف وطريف، وعلى الشاعر لكى يحتفظ بمكانته قريباً من قلوب سامعيه وعقولهم أن يجدد نفسه دواما، وكان خلال إنشاده أو غنائه يتحسس ملامح سامعيه، ويرقب مشاعرهم، ولو أن ذلك لا يعنى أن كل قصيدة أعيد بناؤها فريدة بابها. ولم تكن أشعار كل الشعراء موضع تنقيح وتهذيب، فبعض القصائد كانت دون إعجاب الجمهور وتقديره فاختفت سريعاً، وبقيت مُدونّة، إذا كانت قد دُوّنت، فى شكلها الأول بلا تغيير. كما أن بعض القصائد استطاع مؤلفها أن يضعها، منذ أول لحظة، فى آنق لفظ، وأروع جملة، وأنغم بيت، وما من حاجة تدعو إلى إدخال تعديل عليها، ولدينا من هذا اللون كتاب «الحب المحمود» ديوان شعر كامل لرئيس كهنة مدينة هيتا، فقد جاء غاية فى بابه منذ أن جرى به قلم صاحبه شعراً رقيقاً.

● ● ●

كان مسلمو الأندلس، فى جملتهم الغالبة، من العناصر التى لقيها الفاتحون المسلمون فى شبه الجزيرة، ومع استقرار هؤلاء انتشرت لغتهم، وساد دينهم، وأخذ السكان يتكلمون فى حياتهم اليومية لغة هى خليط من العربية والرومانثية، ولقد ابتُدع الزجل فى قرطبة فى آخر القرن التاسع الميلادى وأول العاشر ليواجه هذه الظاهرة، ويرضى النهم الجمالى عند المتحدثين بها، ممن لا يفهمون العربية الفصحى، ولا الرومانثية الخالصة، ولا اللاتينية المتحجرة،

وإذا كان ديوان **ابن قزمان** أحسن مثل لهذه الظاهرة فى اللغة العربية، حيث تتناثر الكلمات الرومانثية بكثرة وسط الكلمات العربية، فثمة أشعار رومانثية أيضاً، لشعراء جوالين مسيحيين، جاءت على هذا النحو، حيث تتناثر الكلمات العربية بكثرة وسط الكلمات الرومانثية، وكانت مفهومة لأى أندلسى، حتى ولو كان مسيحيًا شماليًا لا يقيم بين المسلمين. كلمات مثل : حبيب، وحزين، ويارب، والقلق، والصباح، والفجر، وكلمات أخرى كثيرة ذات إشعاع وجدانى. وقد أدت هذه الظاهرة إلى نتائج هامة على الصعيد الرسمى للدولة، فكان الأندلس أشد بلاد العالم الإسلامى تشددا فى الدين، وتحمساً للفصحى، وعناية باللغة، وتتبعاً للأخطاء، وتأليماً فى «لحن العامة»، وإهمالا للظواهر التى تمس هذا الاتجاه على صفحات كتب الأدب والتاريخ والمختارات، فليس بين أيدينا ما يساعد على معرفة نشأة الزجل أو الموشحات وتتبع تطورهما، على نحو واضح وبضمير مطمئن. **وإذا كنا نجهل الآثار الأدبية لهذا الاتجاه، فمعلوماتنا عن الشعراء الجوالين المسلمين فى الأندلس الإسلامى قليلة للغاية، أو هى نادرة وبخاصة فى المراجع العربية.**

إلى حد بعيد يمكن اعتبار **ابن قزمان** المتوفى عام ١١٦٠م. مثلا للشاعر العربى الجوال، وأورد لنا المؤرخون نتفاً من أشعاره، ووصلنا ديوان أزجانه كاملا، وكان فى حياته الخالصة مثالا حيا للمسلم الأندلسى الأصيل. كان مرتفع القامة، أشقر الشعر، أزرق العينين، عربيداً متهتكا، غير كبير اعتداد بالدين والتقاليد، قليل الاستقرار والإقامة، كثير الرحلة من بلاط إلى بلاط، يربح عيشه من الحفلات خاصة أو عامة، يعيش من شعره، ويستهدى مادحيه وسامعيه، نبيذاً أو ملابس أو دقيقاً أو سكناً، أو جواهر لعشيقاته، أو حتى دراهم ليقص شعره، وهو إلى جانب أنه شاعر وزجّال، صاحب نكتة ونادرة، جليس ومسامر، يستطيع أن ينثر البهجة، ويبعث المرح، بين من يسهرون معه

أو يستمعون إليه، وهى خصائص الشاعر الجوال كما أومأنا إليه.

ونجد فى المصادر الأندلسية المسيحية معلومات لا بأس بها عن شعراء جوالين مسلمين، كانوا يقيمون فى الجانب الإسلامى أصلا، ثم يرحلون إلى الممالك المسيحية ليتعيّشوا، أو من المسلمين الذين تخلفّوا فى الممالك المسيحية بعد أن انحسر عنها مدّ الإسلام.

كان رجال الدين المسيحيون دائمى الشكوى من أن المسيحيين يأتون بالشعراء الجوالين المسلمين واليهود إلى الكنائس ليغنوا ويرقصوا مما يتنافى مع وقار أمكنة العبادة وجلالها. ونجد هؤلاء الشعراء المسلمين فى رفقة عدد من الأمراء أو الأغنياء، فعندما ذهب الأمير **بدرو**، والذى سيصبح فيما بعد الملك **بدرو الثالث** العظيم، ليزورحماه **ألفونسو العالم**، فى ابريل عام ١٢٦٩م كان يصحب معه فى رحلته لتسليته مجموعة من الشعراء الجوالين، بينهم عدد من المسلمين، ويتلقون طبقاً للسجلات مرتبات عالية.

وعندما أرسل **فرناندو الرابع** ملك قشتالة عمه الأمير **دون خوان** ليتفاوض مع **خايمة الثانى** ملك أرجون، عام ١٣٠٤م، تلق هو وأفراد حاشيته هدايا من الملك الأرجونى، وتذكر السجلات من بين هذه الحاشية **الشاعر الجوال محمد**، وكان يجيد العزف على البزق. وفى الكتاب الذى ألفه الملك **ألفونسو العالم** «أغنيات لمريم المقدسة» رسم لشاعرين جوالين، أحدهما مسلم والآخر مسيحى، يعزفان على العود معاً، واقفين متعاونين، إلى جانب منضدة صغيرة عليها نبيذ. وفى بلاط **شانجه الرابع** ملك قشتالة نجد فى عام ١٢٩٢م، عدد الشعراء الجوالين الذين تدفع لهم مرتبات يبلغون سبعة وعشرين، من بينهم ثلاثة عشر مسلما، فيهم امرأتان، وواحد يهودى، واثنا عشر مسيحيا وثمة شاعران آخران، كانت تدفع لهما الملابس فحسب.

ويقول رئيس كهنة مدينة هيتا، وعاش فى القرن الرابع عشر الميلادى، إنه كتب كثيراً من الأغانى لمغنيات مسلمات ويهوديات، ويُرجح أنه كتبها فى رومانثية تفهم عند المسلمين والمسيحيين، وهو يُحذّر بأن كل شعر وله موسيقاه، وكل أغنية ولها آلتها. وأخيراً فقد شهرت مدينة **شاطبة** فى شرق الأندلس بأنها كانت مركزاً كبيراً لهؤلاء الشعراء الجوالين، عنها يصدرون إلى شتى أنحاء الجزيرة، وإليها يعودون، إذا كبرت بهم السن أو ضاقت عليهم سبل العيش.

ومع مطلع القرن الثانى عشر الميلادى بدأ الشعراء الجوالون، على امتداد الأندلس كله، يتغنون بملحمة جديدة، كان بطلها ملء سمع النصف الثانى من القرن الحادى عشر، وقُدر لها أن تكون الوحيدة التى تصلنا من هذا القرن وما بعده، وأن تكون أول وأجمل درر الأدب القشتالى فى العصر الوسيط، إنها ملحمة السيد القنبيطور، وللعثور عليها قصة وتاريخ.

obeikandl.com